شرح كتاب التوحيد

باب : ما جاء في الرياء

درس مفرغ لفضيلة الشيخ الدكتور

صالح بن سعد السحيمي حفظه الله

تفريغ:

أبو سليمان محمد عبد العظيم بن بَيْكر

-غفر الله له و لِوالديه ولسائر المسلمين-

بسم الله الرحمن الرحيم

[المتن]

قَالَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ-:

بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ: وَقَوْلُهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ **[الكهف: ١١٠]**.

[الشرح]

هذه الآية الكريمة آخر سورة الكهف، والمصنف أوردها في التحذير من الرياء، وهذا لا يتم إلا بآخرها: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ **[الكهف: ١١٠]**.

والوحي هو ما يُوحي الله -تبارك وتعالى- به إلى أنبيائه ورسله سواءً كان بطريق الإلهام، أو يكون وحيًا من وراء حجاب، أو بواسطة الملك، أو ما ينفث في روعه بطريق الوحي، حتى إذا ما سُرِّي عنه؛ عقل ما أُلقي إليه.

و﴿**إنما**﴾ تُفيد الحصر، وهي التي تسمونها كافة مكفوفة، والمقصود أن الألوهية والعبودية والقصد ينحصر في الله -تبارك وتعالى-؛ فلا يجوز أن يؤلَّهَ غيره، ولا أن يُعْبد سواه، ومَنْ فعل ذلك بأن صرف شيئًا من الألوهية والعبودية لغير الله -سبحانه وتعالى-؛ فإنَّ ذلك سيكون مُحبِطًا لجميع أعماله: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ **[الكهف: ١١٠]**

أفاد إفراده -تبارك وتعالى- بالعبادة، وإذا كان هو المُفرد بالعبادة؛ فلا يجوز صرف شيء من أنواع العبادة لغيره -سبحانه وتعالى-.

ثم أيضًا في الآية: إثبات بشرية النبى صلى الله عليه وسلم أيضًا بالحصر بـــ ﴿إِنَّمَا﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾, فالنبي صلى الله عليه وسلم بشرٌ، ومَنْ أخرجه عن بشريته؛ فقد ضلَّ، وكذَّب القرآن؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- بَيَّن أنه بشرٌ في كتابه, فمَنْ زعم غير ذلك؛ فقد أعظم على الله الفرية، وما تعتقده بعض الطوائف الخرافية البدعية الشركية مِنْ أنه ليس بشرًا، لا شك أن هذا المُعتقد الفاسد مُصادمٌ للقرآن، ومُصادمٌ للسنة، ومُصادمٌ للواقع؛ فالبشر كلهم مِنْ بني آدم، ومَنْ اعتقد سوى ذلك؛ فقد افترى إثمًا عظيمًا.

وإنما ميّزه الله -تبارك وتعالى- بهذا الوحي، ولذلك بعد أن بيّن أنه بشر ولا يخرج عن كونه بشر، يجري عليه ما يجري على البشر، ويحتاج إلى ما يحتاجه البشر؛ من النكاح، والطعام والشراب ومُقومات الحياة، واللباس وما إلى ذلك؛ فإنه يُصيبه ما يُصيب البشر من الأمراض والآفات والجوع والعطش والآلام والموت وما إلى ذلك؛ لكن الله -تبارك وتعالى- ميّزه بهذه الرسالة، وكفى بها مِيزة؛ لذلك لا يجوز أن نخرج به عن بشريته؛ كما تعتقد هذه الطوائف الضالة، فإنه أفضل البشر عليه الصلاة والسلام على الإطلاق، ميّزه الله -تبارك وتعالى- بهذه الرسالة الخاتمة، وأرسله كافةً للناس بشيرًا ونذيرًا، داعيًا إلى الله ومُعلِّمًا للبشرية، ومُوجِّهًا لها؛ مِنْ أجل إخراج الناس من ظلمات الجهل والضلال، والبُعد عن الله -تبارك وتعالى- إلى نور التوحيد والإيمان والإسلام الذي جاء به من عند الله.

إذا عُرِفَ هذا؛ فإن المقصود من إيراد الآية آخرها؛ ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾، وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين لابُد منهما لصحة العمل، فإذا لم يتحقق هذان الأمران؛ فإن العمل يكون باطلاً.

وهذان الشرطان تضمنهما آخر الآية: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾؛ وهما:

❖ إخلاص العمل لله وحده، ومِنْ أعظم مُضاداته الرياء الذي نحن بصدده، وقد دلَّ عليه قوله: ﴿**وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾.

❖ ومُتابعة الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا ما دلّ عليه قوله: ﴿**فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا**﴾. ولا يكون العمل صالحًا إلا إذا اتُّبع فيه هَدْيُ النبي صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً واعتقادًا.

ولذلك يقول الحافظ بن كثير: «**هذان هما ركنا العمل؛ أن يكون خالصًا لوجه الله، وأن يكون صوابًا على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم**».

قال الفُضيل بن عياض-رحمه الله- في تفسيره قول الله -جلّ وعلا-: ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾؛ قال: أحسنُهُ؛ أي: أخلصه وأصوبه؛ فإن العمل لا يُقبل إلا بذلك.

وإنما من أعظم مُناقضات الإخلاص، إنما هو الرياء، وكما بيّنا -في المقدمة- أنه قد لا يكون له تأثير إذا دُفع، وقد يُحبط بعض العمل إن كان العمل مما لا يرتبط بعضه ببعض، وقد يُحبط

العمل كله إذا كان العمل مبنيًا على أوله؛ بل وقد يكون شركًا أكبر إذا وصل الأمر إلى أن يكون عمله كله رياءَ.

فالشاهد منها آخر الآية: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾, والذي يرجو لقاء الله، المقصود الذي يُؤمّل ويؤمن بأنه سيلقى ربه لقاء فوز ولقاء تكريم لا لقاء شقاء؛ لأن اللقاء على نوعين؛ ولذلك قسّم الله في سورة الإنشقاق الناس في لقاء بربهم إلى قسمين: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا**﴾ **[الانشقاق: ٦–٩]** جعلنا الله و إياكم منهم. ﴿**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا**﴾ **[الانشقاق: ١٠–12]** إلى آخر الآيات.

فالملاقاة في الانشقاق؛ تعني: مجرد لقاء الله –عزَّ وجل–؛ أي: ما يحصل من لقاء بعد البعث، ولكن الملاقاة المُهمة؛ هي التي يُطبِّق أهلها هذه الآية: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ**﴾؛ أي: يخاف الله ويرجوه ويُؤمِلُه، فإن المقصود لقاء خير، لقاءه المتضمن أنه وافى بامتثال الأمر واجتناب نهيه، والبُعد عن مساخطه، وهو مطمع كل مسلم، وأمل كل مؤمن.

****